محمد ﷺ في الشعر الحديث

للدكتور حلمي القاعود

لاحظ المؤلف قبل إعداد كتابه أن الدراسات النقدية المعاصرة لم تهتم بالشخصية المحمدية في الشعر الحديث الاهتمام الكافي! على الرغم من وجود نصوص كثيرة ذات دلالات فنية وفكرية.

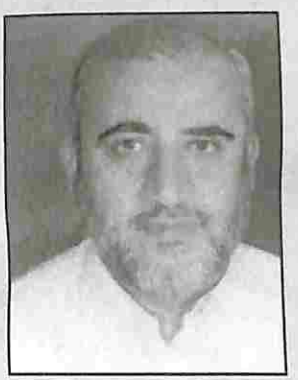

بقلم: يحيى بشير حاج يحيى
سورية

وأن الدراسات التي توقفت عند دراسة شخصية محمد ﷺ في الشعر الحديث أقرب إلى الإيجاز بصفة عامة، إذا ما قيست بالدراسات، التي تناولتها في عصور سابقة، فجعل دراسته تتجاوز النقص الذي لحق بعض الدراسات وقد ركز فيها على أن تغطي ما صدر من أعمال شعرية على مدى القرن الرابع عشر الهجري (١٨٨٢ - ١٩٨٠م) تقريباً، رائده في ذلك استخلاص صورة الشخصية المحمدية من النص الشعري لا من المدائح النبوية فقط، لأن تأثير هذه الشخصية العظيمة قد تجاوز حدود المدائح إلى عوالم أخرى موضوعية وفنية أكثر رحابة وخصوبة حيث تحولت هذه الشخصية الكريمة إلى أداة دفاع في يد الشعراء، ورمز يعبرون به عن قضايا ذاتية وعامة، وتحول الحديث عنها من الغنائيات المسرفة إلى المجال القصصي والدرامي والملحمي والموسيقي.

ويمكن القول إن الشخصية المحمدية في هذا البحث بحكم تفردها وتميزها الديني والتاريخي والإنساني قد اتسعت لتقيم عالماً كبيراً يزخر بالرؤى والأحداث والمواقع، وقد جاء البحث في تمهيد، وبابين كبيرين، وخاتمة، وألحقت به قائمة أولية (ببليوجرافيا) تضم كماً كبيراً من النصوص الشعرية تتناول شخصية النبي ﷺ.

وقد اهتم (التمهيد) بإلقاء نظرة تاريخية على الشخصية المحمدية من خلال المديح النبوي، فعرض لأهم القصائد التي صارت نماذج تحتذى، وأثرت في شعراء المدائح النبوية حتى عصرنا، مع إشارة إلى أبرز التيارات الشعرية التي امتدت حتى وقتنا الحاضر، وحملت خصائص متميزة.

وأما الباب الأول فتحدث عن ملامح الشخصية المحمدية، وضم فصلين طويلين، تسبقهما توطئة عن موقع الشخصية المحمدية داخل التيارات الشعرية في القرن الرابع عشر الهجري، وتنتهي هذه التوطئة إلى أن تيار المحافظين قد احتفى حفاوة كبيرة بشخصية الرسول ﷺ بينما اختفت عند جماعة الديوان؟! وظهرت في صورة خافتة عند معظم الرومانسيين وأعضاء جماعة أبوللو، وأما شعراء التفعيلة فقد وقفوا منها في البداية موقفاً

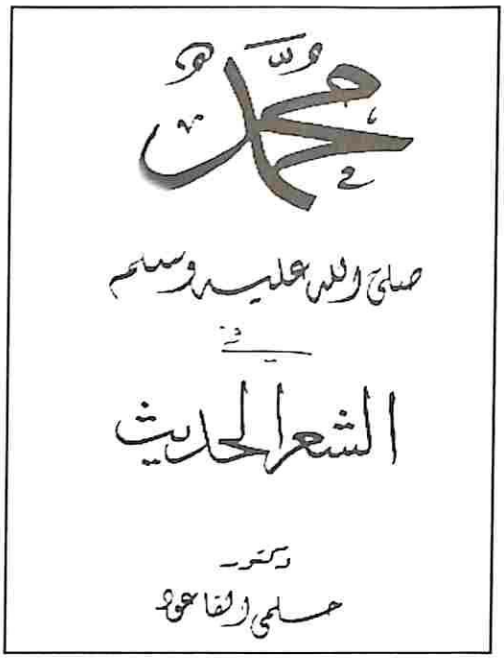

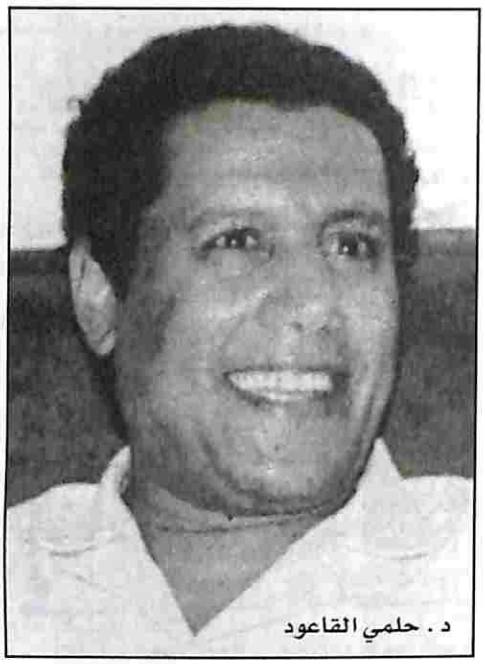
د . حلمي القاعود

سلبياً، ويصفه المؤلف بالعدائي، ثم ظهرت بصورة تنم على الاستخفاف ولكن الأمر كما يرى المؤلف تطور فيما بعد إلى استخدام هذه الشخصية رمزاً عاماً يتمتع بالمهابة والإعزاز!!

ويعالج الفصل الأول الملامح المحمدية الخاصة باعتبار محمد ﷺ نبياً مبعوثاً يحظى بالحب والمشاعر الدفاقة والاحترام والتقدير، ومن خلال ارتباطه بالأحداث التي جرت في زمانه، والأماكن التي حل بها، وصارت تذكر معه أو تذكر به، ولعل الشاعر عمر بهاء الدين الأميري من أكثر الشعراء العرب الذين هاموا بالأماكن المقدسة، وفي ديوانه (نجاوى محمدية) الكثير من القصائد التي تدور في هذه الدائرة:

تقاذف جسمي زحام شديد
وعاق مضيّي إلى ما أريدْ
وماذا أريد سوى نهلة
من النور تروي الفؤاد العميدْ

كما استلهم آخرون الملامح المحمدية الخاصة والعامة، من خلال المدينة والمقام، يقول الشاعر التركي إبراهيم صبري في قصيدة تمثل هذا المنحى:

هذا مقام أحمد المحمود المجتبى
ألا فلتحمل أيها القلم قلبي إليه
وقطعه إرباً إرباً...
وعلق به فلذة منه
لتكون بلسماً لجراحه

ولعل وقفة الشاعر الأفغاني خليل الله خليلي عند المسجد النبوي الشريف كانت أكثر قرباً من الملامح المحمدية الخاصة:

لقد جئت من طريق طويل
وفي قلبي مئات الرغائب
فنظرة على رغبات قلبي الذي يمتلئ بالحرمان
فيصير شوكي ورداً، ويصير ترابي بستان طرب.

أما الفصل الثاني فيتناول الملامح المحمدية العامة، حيث تُظهر النبي ﷺ بطلاً ومثالاً كاملاً للإنسانية ورمزاً حضارياً، إنه الحلم الذي يطمح الشعراء إلى تحقيقه على أرض الواقع، والمستقبل الذي ينشدونه لأمتهم وللناس أجمعين.

يقول أحمد الصافي النجفي في قصيدة بعنوان «محمد»:

محمد، هل لهذا جئت تسعى
وهل لك ينتمي هم مُشاع؟

أإســـــلام، وتـغـلـبـهـم يـهـود!
وآســـــاد وتـقـهـرهـم ضـيـاع؟
شـرعـت لـهـم سـبـيـل المـجـد، لـكـن
أضـاعـوا شـرعـك الـسـامـي فـضـاعـوا

ويبرز عبدالوهاب عزام المعاني الحضارية العظيمة التي تكمن في ملامح الشخصية المحمدية!

يا رسول السلام والبر والرح
مة والعدل والسنا والسناء
إن ذكـراك مـولـد لمعـــان
أبد الدهر ما لها من فناء

ويكاد يجمع الشعراء النصارى العرب على رؤية محمد ﷺ في صورة المصلح الاجتماعي الذي يحقق للمجتمع ما يصبو إليه من سلام ووئام بين أفراده، وحركة ونشاط نحو التقدم.

يقول وصفي قرنفلي- وقد اتهمه منتقدوه بأنه أخطأ الطريق في حب محمد، وأنه يتقرب من الجبهة القوية ويرائيها:

مـا تـراءيـت بـالـهـوى، بـل سـقـانـي
طـائـف الـحـب والـهـوى مـا سـقـانـي
أوَ عـــار عـلـى فـتـى يـعـربـي
أن تـغـنـى بـالـسـيـد الـعـدنـانـي؟
أو لـيـس الـرسـول مـنـقـذ هـذا
الشرق من ظلمة الهوى والهوان؟

ويرى المؤلف أن الشعراء النصارى كانوا مفاجأة البحث المدهشة حيث وقفت أغلبيتهم الساحقة موقف التعاطف مع الشخصية المحمدية، بل تفوق بعضهم على شعراء مسلمين في التعبير عن الملامح المحمدية!

وفي الباب الثاني يطالعنا الاهتمام بقضايا البناء الشعري، ويتكون هذا الباب من ثلاثة فصول، تسبقها توطئة تتحدث عن مستوى الشعر الذي تناول الشخصية المحمدية، وأهم الظواهر التي برزت في معالجة الشعر الذي تناول هذه الشخصية مثل المحافظة، والتجديد، والأعمال الدرامية، وأدوات التشكيل الشعري، واللافت للنظر في ذلك أن عدداً كبيراً من الشعراء يوالون القدماء في أبنيتهم الشعرية ومعجمهم وصورهم وموسيقاهم، وكانت قصائدهم أوضح مثال على ذلك، فيبدأ المقلدون بمقدمة غزلية أو غير غزلية، يليها حديث النفس، فرصد الملامح الشعرية، فالتوسل والتشفع فالصلاة والتسليم على النبي ﷺ. كما في قصائد أحمد شوقي وأحمد محرم ومحمد عبدالمطلب ومحمود سامي البارودي وغيرهم.

عبدالوهاب عزام

يقول شوقي في بدايته الغزلية:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ويقول البارودي في حديث النفس:

فمن يردُّ على نفسي لبانتها
أوْ من يجير فؤادي من يد السقم

ويقول «ميشيل ويردي» في رصده لأحد الملامح المحمدية:

يـا فـخـر أمـتـنـا في الأرض قـاطـبـة
وسـيـد المـصـلـحـيـن الـعـرب والـعـجـم

ويقول باكثير في خاتمة قصيدته:

واخـتـم بمسـك تحـيـات يـفـوح على
محـمـد خـيـر مـبـدوء ومخـتـتـم
ما أومض البرق في الظلماء من إضم
ومـا خـطـا الـريـم بـيـن الـبـان والـعـلـم

وكذلك أخذ التجديد مداه وانتقل الشعراء من خلال عمود الشعر التقليدي إلى التنويع في القوافي، والأشكال الشعرية مع تجديد في بنية القصيدة والمعجم و الصورة والموسيقى، واستجابة لروح العصر الذي يحبذ التخلص من المقدمات والخواتيم وغيرها.

يقول عمر أبوريشة في قصيدة «يا رمل»

يـا رمـل أرجـع حـداء في مسـامعـنـا
هـل حمَـل الـركـب بشـراه ومـا علما
قيثارة الوحي لم تجرح لها وتراً
أيـدي الـلـيـالي ولم تحبس لها نغما

أمـــن ســنـا أحـمـد حـر ستطلعه
وتطلع المجد في برديه مضطرما؟
فيرجع الأرض ريّا بعد ما يبست
ويمتطي الدهر غضاً بعدما هرما؟!

وظهرت الأعمال الدرامية أو المطولة التي تعد نوعاً من التجديد.

دخل الشعر العربي بصفة عامة في القرن الرابع عشر الهجري وقد تراوحت بين منظومات ومسرحيات ومطولات أو ملامح تتناول السيرة النبوية، أو تركز على جوانب منها، كما في الإلياذة الإسلامية لأحمد محرم، والملحمة المحمدية لكامل أمين، ومسرحية «ميلاد النبي» لمحمد محمود زيتون.

يقول أحمد محرم في القصيدة الأولى بعنوان مطلع النور الأول من أفق الدعوة الإسلامية:

املأ الأرض يا محمد نوراً
واغمر الناس حكمة والدهورا
أنت أنشأت للنفوس حياة
غيرت كل كائن تغييرا
أنجب الدهر في ظلالك عصراً
نابه الذكر في العصور شهيدا
كيف تجزي جميل صنعك دنيا
كنت بعثاً لها، وكنت النشورا
ولدتك الكواكب الزهر فجراً
هاشمي السنا، وصبحا منيرا

وتوقف البحث عند أدوات التشكيل الشعري في نظرة خاطفة تحدثت عن المعجم والصورة والموسيقى، وأشارت إلى تطور جديد في الناحية الموسيقية، وهو دخول «القصيد السمفوني» إلى دائرة المعالجة الشعرية، وضرب لذلك مثلاً بعمل للشاعر عبده بدوي حيث يأتي النظم سهلاً وبسيطاً وواضح المعاني ومعتمداً على التفعيلات المجزوءة حتى يسهل التناغم بين الأداء والإيقاع، يقول عبده بدوي في المقطع الأول يعبر عن فرحة الكون بقدوم الهادي البشير ﷺ.

عمر أبو ريشة

أحمد محرم

صوت ١: كل شيء بين هذا الكون يشدو.
كورال: يا محمد.
صوت ٢: وينادي في حنان.
كورال: يا محمد.

ثم يختم المؤلف الدكتور حلمي القاعود بأن كثيراً من القضايا كان ينبغي التوقف عندها بتؤدة، والحديث عنها باستفاضة، ولكن الأمر فيما يرى يحتاج إلى بحوث عديدة، وعسى أن يكون بحثه قاعدة لقضايا شعرية أساسية تدور حول محمد ﷺ في القرن الرابع عشر الهجري، وأن يلفت الانتباه إلى تراث غزير ومهم

وقد جاء الكتاب في طبعته الأولى ١٤٠٨هـ في ٦٤٠ صفحة من القطع الكبير، بذل فيه المؤلف جهداً محموداً يدفعه إلى ذلك حبه لنبيه ﷺ والتزامه دينه.■